

المملكة

قصة

بقلم عبدالرحمن البسك

باعتبارات ومثل وقيم ثم نتركها حينما تفارقنا الحياة .

- أراك تقول بارأى أبى .. مع انك تسفها .

- ان الاعتقاد بمثل تلك الافكار ، انما هو نتيجة للافراط بالشعور بالملك ، ان هذا الزمن رغم انه يشغل حياة المرء بأحداث لاحد لها ، الا انه من جهة ثانية يأتي بالضرر الشديد على النفس . المرء في هذا العصر ينال كل ما يريد ، ان مجرد التوقف عن نوال ما يريد يسبب له ألما . يجب ان نؤمن جميعا بان العقل يملي علينا حتمية ارضاء النفس دون الإيمان بحدود والا فان التعاسة تتعاطم بصورة وباء خفي .. فما هو قولك ؟ .. انت تظنين انني احب والدك ، ولكن تقى انني انفر منه ، بل اكرهه ، لان صفته كآب تجعلني اشعر بضيق خائق ، ان كل صفة تقيد كل شخص انما هي وحشية .. فما هو رأيك ؟ .. اريد ان اطرح عليك سؤالا .. هل تحبين والدك ؟

- نعم .

- الى أي حد ؟ ..

- الى حد بعيد

- هل تفضيلته علي .. أسألك هذا بصفتي خطيبك ..

- ان هذا الامر يحيرني ..

- انت تناقنين .. اعلمي يا ندى ان الحب مصدره واحد ، وانما تعددت صورته بفعل انحرافات اجتماعية كانت مسيطرة على انحراف الناس طيلة ازمة متعاقبة ، أنت لاتفكرين بالانطلاق من اسار التفكير الرخيص .

- على اية حال فانا اعتقد ان ابى سيكون سمحا ..

- هذا لطف منه .. فوالدك لم يكن بهذه الرحمة ..

- وكيف ؟

- تسألين كيف ؟ اسمعي ياندى . فانت ماتزالين تجهلين والدك ، انت لاتعلمين عنه الا جانب العطف الابوي . غير انه اذا ما اردت ان تقفي على حقيقة شعوره نحوك ، فان الواجب يقضي ان يصارك بكل شيء . والا فان علاقتك به تبقى مصطنعة ، وهذا شأن كل علاقة ، الحب ياندى في اساسه نوع من المصارحة ، فالكتمان يقطع صفاء الحب ، ويشكل لطفة في صفحته البيضاء .

- وماذا وراء ذلك ؟

- اعني انك بحاجة الى المزيد من المعلومات لكي تعرفي والدك . لانك اذا ما عرفته على حقيقته تحول حيك نحوه عن مجراه القديم واتخذ مجرى جديدا . انك اذا ماوقفت على سر من اسراره خرج عن مكانته كآب ، واصبح في نظرك رجلا عاديا تحترمينه . ان الناس ياخذون بالاحداث على اساس كونها حقائق ، دون ان يعمدوا الى اعمال عقلم فيها ، والحادثات التي يظنها اكثر الناس حقائق قابلة لعملية مخبرية هي التحليل والتركيب ، وبدون هذه العملية تبقى الحقائق غامضة . ورغم ان الناس ياخذون بها مطمئنين الا ان الناقض يعترى حياتهم دائما . ومن هذا الناقض يتولد البؤس والنزاع والشقاء . وساد بينهما فترة صمت . ثم قالت ندى في ذهول :

لم تتوقع ندى ان يحضر رمزي في مثل هذا الوقت المبكر ، فقد كانت تعتقد انه مازال لديها متسع من الوقت لتقف على سر انقطاع التيار الكهربائي في المنزل . ولكنها عندما سمعت صوته وراء الباب لم تتردد في دعوته للدخول .

وانبعت وقع اقدامه في ظلمة حجرة الاستقبال بينما انصرفت هسي الى دولاب في الزاوية لتخرج منه شمعة .. وكانت اناء ذلك تبدي عذرها لانقطاع التيار دون علمها ، واخيرا سمعت صرير الاريكة ففرفت انه اتخذ لنفسه مكانا .. تماما في المكان الذي يتخذها والدها انشاء راحتته .

لم ينبس رمزي ببنت شفة ، وسألته ندى عن سر وجومه ، فلم يجر جوابا .. فدهشت واعتراها مس من خوف ، ولكنها سمعت على حين غرة صوت عود الثقاب يستعمل بين يديه ، ثم شاهدته يقربه من غليونه .. وهنا بانقت قسمات وجهه ، فبدت لها وكأنها تنسم بعلائم المرض والتغير ، وسألته باقتضاب وبشيء من الحذر :

- هل انت مريض ؟ ..

وسمعت صوته لأول مرة .. صوته الاجش ذا التأثير السحري والجرس الممييق :

- كلا ..

وانطقا عود الثقاب ، وعاد الظلام يفصل بينهما ، وبعد حين صحت ندى من استغراقها فعدت ادراجها حاملة الشمعة وهي تحس بان رمزي على غير طبيعته ، وبينما هي كذلك اذ انتشرت في جو الغرفة رائحة التبغ ، فوجمت في مكانها قليلا منهولة ، ثم طرحت عليه سؤالا :

- اراك اخذت تميل الى هذا النوع من التبغ .. انذكر انتقاداتك لابي بشأنه .

- نعم اذكر ذلك ، ولكن الامزجة تتغير .. وامسك قليلا عن الكلام اردف :

- خير لك ان تشعلي الشمعة في حجرتك .. فانت بحاجة لانهاء أمورك ..

ووافقت ندى ، فاشعلت الشمعة وثبتتها في حجرتها وابتقت البسبب مفتوحا وراحت تحدث رمزي .

وسألها رمزي :

- ماذا تتصورين ان يكون موقف والدك من سفرنا ؟

- والذي .. اعتقد انه سوف يستجديني البقاء في كنفه

- ولكن انت تعلمين كم انا محتاج اليك ياندى ..

- اذن .. كيف السبيل الى التخلص من مشاعري ؟

- اراك وكانك ماتزالين مأخوذة بذلك الاب الذي لا هم له الا ان ياخذ الباب الناس بروعة تمثيله ..

- لقد حاولت نسيانه .. ولكنني لم افلح .

- اسمعي يا ندى .. الا تعلمين انه لا قيمة لافكارنا ووجودنا ومبادئنا ، لان الزمن سوف يطوي المستقيم والشديد ، فمن نكون نحن بالنسبة لقوم سيعيشون بعد مليون سنة ..؟ .. اننا مجانين حينما نتمسك

– يبدو أنك تريد ان تخرجني عن طاعة ابي !!

عن اطواره . والمرة في عصرنا هذا يريد ان يكون كل شيء .. وهو في وقت واحد يريد ان يكون هنا مع اهله واصحابه ويريد ان يكون هناك مع عشيقته او مع زوجة رجل اخر يطوف معها اعالي الجبال في اجمل مناطق العالم ..

انه يريد ان يكون مستقيما ومجرما ، يريد ان يكون مقامرا وشريفا يريد ان يكون سارقا ورئيسا لشرطة المدينة ، يريد ان يكون متعبدا وملحدا . ان الحرية اعطته صلاحية واسعة لان يرشح نفسه لجميع المناصب .. كل هذا مجرد احلام ، وبما ان ذلك لا يتحقق بسبب وحدانية شخصية المرء المادية . فان التمثيل يحقق له كل ما لا يتحقق . ان والدك مثلا استطاع ان يطور الرجال ويؤثر في المجتمع .. كان يؤلف صورا للعواطف والفرائز ، يبعث حياة جديدة في نفوس الناس ، يحضهم على ثورة ، ويخرجهم عن طورهم ، كل ذلك باسم الفن . انه كان يهيمن على كون باسره ويوجهه كما يوجه الملاح سفينته .

– هل من اسباب اخرى كانت تدعوه الى هذا الفلوف ؟

– بلى .. ان والدك ، ككل امريء ، كان يشعر انه في حلبة سباق ، الناس جميعا يتسابقون نحو شيء اعلى من انفسهم بالذات ، وهم من اجل ذلك يكذبون ويناقشون ويفشون ، واهيانا يستعملون الفضائل لتغطية كذبهم ونفاقهم وغشهم . فالصناعي والتاجر والزارع والمحامي والطبيب والصيدلي وجميع الطامحين الى توسيع هائل شخصهم ينبعثون من الحضيض ، فلا يرضون بحد يقفون عنده .. وهم في سباقهم هذا يدوسون الالاف من الضعفاء والمات من المساكين الصديقي المواهب . انهم يشلون حركة الطبيعة ويفرون مجراها .. انهم اشبه بدوام ، ولكن دوامة لا تدور فقط وانما تهب بهم ايضا فسي استقامة الى نهاية محترمة . ان والدك يريد ان يبرز من دون اولئك ولو عن طريق هدم كل شيء .. فتحن في هذا الزمن لا ننظر الى علل الاشياء .. وانما ننظر الى الاشياء بحد ذاتها فقط . التعليل عدو البشرية ، ان المتفهم يصنعون كل شيء في هذه الحياة للعامة من الناس وهم في المستقبل سيصنعون لهم اطفالهم صنعا وسوف تنقطع كل العلاقات ليعيش الفرد كما يعيش الرب في الاساطير . ان العصر كما قلت يتطلب ذلك . وشخص كوالدك خلقت الصنعة الحديثة ، لا يحب ان يكون له في الحياة نظير .. لا .. بل هذا شعور كل رجل من اولئك الرجال الذين ذكرتهم لك .. ان الانفراد هو بالطبع صفة الخالق ، ولكن الشعور العام الان اصبح ينفر من وجود منافس في الخلق والابداع ، فالطبيب اصبح يشفي المريض بمساعدة الصيدلي والصناعي تغلب على المسافات الكونية ، والتاجر تملك طاقة الاقتصاد واصبح يتحكم بالرفاه والمجاعة .. وكذلك الممثل .. بل هنا تبدو الظاهرة بصورة جلية اكثر لان الافراد يناثرون سريما بالفن . وهل يمكن ان تجدي شابا لا يزهو بمشيتته وتسريحة شعره ولفئاته ونظراته كما يزهو الممثل .. ان القرصنة انتقلت الى الشوارع بعد ان كانت البحار قد احتكرتها ردحا طويلا ..

وقاطعت ندى قائلة :

– ما هذا ؟ .. انك لتبدو وكأنك تعرف ابي اكثر من ابي

– تماما كما تقولين ... دعيني اذن من هذه التفاصيل .. وتعالني .. اني اريد ان اطرح عليك سؤالا .

واقتربت ندى منه ، فشاهدت وجهه باهتا كالاموات . وكان ضوء الشمعة الخافت المنبعث من حجرة النوم يزيد وجهه رهبة وبشاعة . وراحت ندى تلمي بصرها في تقاطيع وجهه في شيء من الذعر والاستغراب ويبدو ان رمزي قد شعر بما الم بها فسألها :

– ما بالك تحدفين بوجهي ..؟

– يخال الي انك تقاسي الما .. امريض انت ؟

– انا لا اريد ذلك . ولكن اريد ان تبني طاعتك له على اساس جديد . انت تطيعين والدك بفعل التوجيه والتربية .. ان واجب الطاعة اسطورة انه مفهوم توارثته الاجيال عن الانسان القديم . فانت مثلا تجهلين حتى الان لماذا تطيعين والدك . اسالي نفسك مرة . ما هو مبنى الطاعة تجدين انك تجهلين ميناها . ومعنى ذلك انك تشغلين نفسك بتنفيذ امر حقوقي وانت معصوبة العينين . واذا كان ثمة خاطر يؤكد لك ان اطاعتك انما هي وفاء لخدمته وتسديد لانفاقه .. فاعلمي ان الخدمة الابوية لا تقاس بمقاييس وفاء الديون والسفينة لان الانسانية ليست علاقات تجارية .

– يبدو هذا الكلام اشبه بالفلم الذي يوضع في شق الصخور

– الحقيقة ! اني متشائم . ولكن اعتقد ان هذا التشاؤم هو في صالحنا . فانا اريدك ان تتحرري من عبودية قاتلة ، عبودية الطاعة والاحترام . ولتسمحي لي ياندى بان اقرب لك مثلا ماخوذا من حياة والدك لتعرفي صحة ما اقول ، ولا اظن مدى تناقص نفسك مع نفسك .. هل تعلمين ان والدك قاتل ؟ .

– قاتل .. ؟ .

– اجل قاتل .. اهدني يا ندى وافهمي الحادثة بروية ، فاما ان تزفي عن التلون واما ان تخلصي للافكار المجردة . حدث ذلك وانت طفلة . كان والدك يسعى الى المجد والشهرة سعي العابد الى بارئه . لقد كان والدك يؤمن ان لا سبيل الى سحر المتفرجين والاخذ بالبابهم الا في اظهار التمثيل قريبا من الواقع . ان والدك ازهق نفسه طلبا للمجد وعاش ايامه بلا تائب ضمير ، لانه كان لا يؤمن بأية علاقة مصدرها العطف . ولقد ظل مصرا على ان حادث الخنق كان نتيجة لانفعاله الشديد وفقد زمام نفسه ولكن ذلك لم ينجه من عقوبة صورية على الاقل .. باعتبار ان نية القتل منتفية . هذا شيء فظيع .

– لا بل هذا شيء مألوف وعادي ، انما هو شيء فظيع بالنسبة اليك فقط ، لان ما يهكم من والدك هو جانب العطف والرحمة والمحبة ، وهكذا تلمسين التناقض في نفسك . اما بالنسبة لسائر الناس فانهم ينظرون الى وجوده من زاوية فنه ومقدرته الفائقة على الاحساس بعواطف الغير .

وهذا هو الوضع الصحيح للفرد . فشتان بين ان تكون افسسال المرء فظيعة ومرعبة وبين ان تكون عادية مألوفة في وقت واحد . ان الذي يولد التناقض هو اختلاف الزوايا التي ينظر منها المرء الى العلاقات .

ان كل فرد يجب ان نطيه قيمة بالنسبة للمنفعة العامة ، وما حياته الخاصة الا وهم لا يعني المجتمع في كثير او قليل .

– وماذا ترى ان يكون موقعي ؟؟

– ان هذا يتعلق بك اولا . فانت بلا شك عرفت الان انك تخلصين الى رجل مجرم ، يخفي في جنباته احتقارا لجميع القيم .. وهل بمسند ازهاق النفس ابتغاء الكسب المعنوي يوجد اشنع من هذا العمل . فاذا اردت التوفيق بين عطفك نحوه كابتة ونفورك منه كقاتل ، فما عليك الا ان تتخلصي من اسار الابوة ، وتقفي بجانب الرأي العام ، هناك تشعرين نحوه باحترام جديد ، وينهب التناقض عن نفسك .

– وهل تستطيع ان تفيدني عما كان يهدف من وراء ذلك ؟

– قد استطيع ذلك ، ولو اني قد افق احيانا فريسة للتخمين الخاطيء . ان التمثيل يا ندى يملك عليه له .

هذا اولا . اما الشيء الثاني ، فان فكرة التمثيل ، وهي عيسارة عن نقل العواطف وتقليد الاشخاص ابتغاء التحسين ، انما تخفي في نايها وحياسر النفس ويسمونها ويمجدها ويجعلها تخرج المرء

- هذا كذب وتلفيق .
 - انت مفرورة .. اصفي الي يا ندى .. ان والدك يحبك .. يحب
 فيك جسداك المشير .. وهو يريدك ..
 وتساعد الدم فجة الى وجه ندى ثم تخلصت من طوق يديه في حركة
 شديدة .. وذهبت نحو الباب تقول :
 - اخرج ايها النذل .. ايها البذيء ..
 وضحك رمزي من اعماقه ، وهب نحوها يريد القبض عليها . ولكن
 ندى هربت الى حجرتها فاغلقت دونها الباب ثم اوصدته ، وجعلت
 تبكي .

بعد ساعة من الزمن ، خرجت ندى ويدها الشمعة . وقصدت الحمام
 لتفسل وجهها .. هناك شاهدت جثة معلقة في السقف تترنح وصرخت .
 ثم هربت نحو الباب الخارجي . وكانت الاضواء كالعادة ، الا في المنزل ،
 ولم تلحظ ذلك وفجأة سمعت وقع اقدام تصعد الدرج . كان رمزي .
 فقد بدا لها وكأنه قد عاد ليكفر عن ذنبه . فما ان اخبرته بالجثة ..
 حتى هرع الى الحمام .. فشاهد شخصا متشبها به بارد اليديس
 ممتقع الوجه وفوق المسلة شاهد رمزي كتابا ففتحه وقرا .

« انه ذنب الطبيعة يا ندى .. احببتك بصفتي انا الرجل الصحية
 الذي افتقد الحدود في نفسه لدرجة اصبح يظن انه اله سامحيني
 يا ندى ، انت خالدة . واعلمي يا ندى انه من الخطأ ان يستعمل المرء
 كل ذكائه ، ان الذكاء يأتي بالدمار . اما ترين الانسانية الى اي منحدر
 تسير ، كل ذلك بفضل الاختراع ابن الذكاء . ابن الذكاء يفتقد في النفس
 حدودا انسانية ليجعل من العلاقات البشرية موضوعا سخيفا . وهذا هو
 الخطأ الكبير .. معذرة يا ندى ، يا ابنتي الطاهرة .. معذرة فانا مزعم
 ان اتخلص من ذكائي .. والنذل المخلص ... الحقيير .. »

عبد الرحمن البيك

حلب

قريبا :

الطبعة الثانية من ديوان

قصائد عربيتنا

للشاعر سليمان العيسى

دار الاداب - بيروت

- قليلا .. لنصرف النظر عن هذا الموضوع .. فانت الان يا ندى
 امام تجربة .. عليك ان تاخذني علاقتك منذ الان ، مع ابيك ، علسي
 ضوء نظرية التحليل والتكوين . فانت كفتاة مثقفة لا تقبلين ابوة رجل
 مجرم ، ولكن تقبلين صداقته كفتان ان العطف والقسوة لا يجتمعان ..
 عليك ان تقفي في الزاوية العامة للنظري اليه كرجل مخلص للفن ...
 ثم اكتشفتي لسي بعد ذلك عن حقيقة ما يختلج في
 صدرك من طبيعة الحب .

واسترخت ندى بجانبه على الاركة ، ثم اغمضت عينيها ،
 وتركت قيود تفكيرها تنطلق لذاتها ، ثم تصورت والدها في
 شتى مراحل حياته ..

ومضت فترة وجيزة كان رمزي خلالها يتفرس في وجه ندى الذي
 كانت تظهر ملامحه علسي ضوء الشمعة ثم ما لبثت حتى
 استيقظت قائلة :

- لقد انتهت التمثيلية .. ثق يا رمزي انني مهما حاولت ان اجرد
 نفسي من العواطف والقيود القديمة فلن اشعر تجاه والدي الا بشعور
 واحد شعور الابوة والبثوة .. انه ابي .. انه ابي ولن يتغير شيء
 من هذا مهما تغيرت الشروط

- بل ستتغير .

قال هذا في انفعال ثم اردف :

- انني اريد تخليصك من برائن والدك .. ان والدك ياسـسـرك
 كيف يمكنني ان اتق بك ، انني اكره الفتاة التي يبقى انتباهها
 عالقا بشخص سواي انني اكره والدك ، وانني في حالات كثيرة حاولت
 قتله .. ولكن ما الفائدة .. ان في قتله قتل نفسي .. ان الجريمة
 تحتوي بان واحد على فعلين متحدين ، الجرم والعقاب .
 وندت صرخة عن ندى :

- ماذا تقول يا رمزي .. هل ذهبت بك الخواطر الى قتل ابي .
 وشعر رمزي بالحرع ، فنهض من مكانه متفعلا نائرا ، ثم اقترب من
 ندى وطوقها بذرابعه قائلا :

- بلى .. وانني ما زلت عازما على التخلص من شخص والدك فانت
 ما تزالين تحبينه .

- اجل فانا ما ازال احبه ، وماذا في ذلك ؟

- تقولين وماذا في ذلك ، انه لمن الخجل ان اوضح لك الامر ..
 انت ما تزالين طفلة .

- بل اوضحه ، هذا تعريض لا لزوم له ، ثم انك تطوقني هكذا وكأنك
 وحش .. هيا دعني ، ان ذراعيك فاسيتان كأنهما قصبان حديد ..
 دعني

- لا .. لن ادعك ما دمت متعلقة بابيك .. لقد حاولت طويلا ان اجلوه
 عن نفسك .. انت غيبية يا ندى ، فلن نسعد الا اذا عملت على تغير
 شعورك نحوه

- ما هذا الهذار يا رمزي .. انني لا اكاد افهمك انت تريد ان انكر
 على ابي انه ابي ، وما قيمت ذلك . هبني صرحت لك بما
 تريد .. فماذا يجري ؟

- ان التصريح لا يكفي .. بل عليك ان تجري عملية انفصال
 في مشاعرك

- ها .. هذا جنون . هيا دعني .. انك تؤلني .

- لن ادعك اينها الغبية .

- تقول انني غبية .

- اجل فلقد ظننتك فتاة ذكية مثقفة تستطيعين مجاراتي . وفجأة
 اكتشفت انك فتاة ضعيفة العقل سيئة التفكير .

- هيه .. ياله من قول مضحك .. انني راضية بعقلي الضعيف
 وتفكيري السيء .. هيا دعني ايها الفضولي .. فلقد حسبت انك ملاذي
 في هذه الحياة فاذا انت الجريمة بعينها .

- تقولين انني الجريمة بعينها .. ها .. ها .. انت مخطئة ..
 ان الجريمة بعينها هو والدك .